تستخدم كافة الجماهير وان غيابها (الجماهير) عن المعركة في ١٩٤٨ و ١٩٧٣ ، كان السبب وراء ما حصل !

ان الذين يريدون محاربة اسرائيل ومحاربة جماهيرهم في آن معا ، لن يتمكنوا من اشغال الفراغ الذي تركه عبد الناصر ...

ان سر تعلق الجماهير بابن بللا يرجع الى انه مكنها من ان تنخرط في ميدان المعركة ضد اعدائها القوميين والطبقيين .

اسألوا السائق الجزائري الذي يقود سيارته بسرعة متناهية ، عن سبب اعتيادته على هذا النوع من السياقة ، وسيأتيكم الجواب : لقد تعودنا السرعة منذ ايام الثورة ... اسألوا المواطن الذي يتكلم العربية بصعوبة ، عن سبب لكنته ، وستلحظون ان جوابه عبارة عن ذكريات مرة عن الاستعمار وانا شيد حلوة عن الثورة التي مكنته من ان يتكلم بلغة القرآن وان بلكنة !

يقول جياب : « ان قوتنا العسكري يحمل طبيعة تستهدف :

- هزيمة القوة المادية بالقوة المعنوية .
- هزيمة ما هو قوي بما هو ضعيف .
- هزيمة ما هو عصري بما هو بدائي .
- هزيمة الجيوش العصرية للامبرياليين المعتدين بوطنية الشعب وبالتصميم على انجاز ثورة جذرية عميقة » .

ان « وطنية الشعب » لا يمكن ان تفعل فعلها في معارك التحرير ما لم تطلق الحريات وتتاح الديمقراطية للجماهير ، لان سر نجاح الحروب الطويلة ، يكمن في انها تطلق طاقات الجماهير وتحشدها في المعركة ، الامر الذي يجعل العدو القومي امام واحد من خيارين اما ابادة الشعب كله واما الاستسلام . ان الحرب الطويلة تخلق وضعا نفسيا لدى العدو تتحول معه قواه المادية العصرية وتفوقه الى يأس وتخاذل وأزمة ، ولذلك لحظنا الارض الفيتنامية تضيق بالاميركيين لدرجة لم يبق لديهم مجال للهرب غير سطح السفارة ، فاضطر السفير الاميركي الى استدعاء طائرة هيلكوبتر كي يحمل علم بلاده ويهرب ، في حين اننا نتوسل بالامبرياليين ان يحلوا لنا ازمتنا مقابل زيادة انتاج النفط وتخفيض اسعاره ...

ان الجماهير هي الطاقة الكبرى التي نتفوق بها على اعدائنا ، والتي ليس بوسعهم مجابهتها وابطال مفعولها . والديمقراطية هي وسيلة تعبئة الجماهير وضمانة انتصارنا في المعركة . فلا نجعلوا معركتنا مع الصهيونية والامبريالية ، فقرة تجريبية توازن بين الانتصار والانتحار ، بل اجعلوها معركة طويلة مستمرة ، بحيث لا نفهرم بفشل معركة نخوضها ، ولا نوقف الحرب بسبب معدات متطورة نفتقر اليها ، وان سقط شهيد فهناك مئة وخمسين مليونا من المقاتلين ... هكذا نستمر حتى ننتصر !

متطلبات الانتصار في المعركة

اذا كانت الديمقراطية هي وسيلتنا لحشد طاقات جماهيرنا وتعبئتها في المعركة ، فان متطلبات توفير الديمقراطية وشروط سيادتها تستدعي تجميع كل القوى التقدمية والوطنية ، في جبهات وطنية ومنع كل الطبقات الوطنية حرية التعبير الفكري والسياسي والنقابي على اساس التقاء المصالح والمواقف السياسية ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ...

ولكن اقامة الجبهات الوطنية في الاقطار العربية لا يكفي ، ولذلك لا بد من التقاء كل القوى التقدمية والوطنية على الصعيد العربي وحشدها في المعركة بحيث يوضع حد لحالة الاستئثار الراهنة التي يمارسها الحكام العرب ، فكل حاكم يتصرف بامكانيات القطر الذي يحكمه دون ان يتحمل قسطا محددا ومعلوما من اعباء المعركة القومية ولذلك فان قيمة التقاء قوى الامة العربية الرسمية والشعبية ، تتجلى من نجاحه (اللقاء) بوضع حد للدكتاتورية الفردية او الحزبية السائدة ، واطلاق الحريات وتوظيف الطاقات والامكانيات المادية والمعنوية التي تزخر بها جماهيرنا العربية ...

ان حشد الجماهير وتعبئتها يتطلب ايضا تدريبها وزجها في صفوف المقاومة الشعبية ضد اسرائيل والامبريالية والرجعية ...

اذا ما تحققت هذه المتطلبات وهي متوفرة ، فان الجيوش والسلاح والنفط ستكون ذات فعاليات هائلة لدرجة نستطيع معها اجبار الامبريالية على الركوع امام ارادتنا . وحينئذ يمكننا ان نجعل اسم اسرائيل خبرا لفعل « كان » ، بحيث تقوم دولة ديمقراطية اشتراكية على انقاضها !

المطلوب من القيادة الجزائرية

ان اطلاق حرية بن بللا ، مبادرة حميدة ، ولكنها ليست كافية ، لان المطلوب ليس فقط تحرير بن بللا الانسان واعادة حقه الطبيعي اليه ، وانما المطلوب ان تكون هذه المبادرة خطوة على طريق تجديد شباب الثورة الجزائرية وحيويتها !

لسنا نعني اطلاقا ان بن بللا سيخلق المعجزات ولكننا نعتقد ان القيادة الجزائرية مطالبة بمراقبة صدى فعلها وردود الفعل عليه . وعندما تلمس هذه الموجة الايجابية لمبادرتها فانها لا بد ان تتحفز وتتشجع لتحويل هذه الموجة الى رصيد شعبي جزائري وعربي لها .

ان القيادة الجزائرية الحالية تتذكر ولا شك كم عانت قيادة بومدين من جراء اسقاط بن بللا وكيف انها (قيادة بومدين) واجهت حملة الاستنكار والهجاء بالتقرب من القوى العربية ودعوتها للحوار ، حتى نجحت في عقد ندوة الاشتراكيين العرب في الجزائر عام ١٩٦٧ التي كانت خطوة انفتاح عززتها ظروف الهزيمة فيما بعد . نذكر هذه الواقعة كي نؤكد على المكانة التي يحتلها بن بللا لدى ابناء شعبنا العربي ، ولذلك فاننا نعتقد ان اطلاق سراح بن بللا يجب ان يكون خطوة على طريق فسح المجال امام الرجل كي يسهم بما لديه من طاقة حيوية لم تستهلك بعد ولم ترهقها اعباء الحكم ... طاقة ما تزال تتمتع بحيوية الثورة وشبابها . ان عودة بن بللا الى مكانته بين رفاقه قادة الجزائر ستكون خدمة للثورة ودفعة دافقة تقترب بها اكثر فاكثر من اهدافها الوطنية والقومية .

ان بن بللا يمكنه ان يلعب دورا قائدا على الصعيد العربي خارج اطار الوظائف الرسمية ، لذلك فان الجزائر تستطيع بوساطة بن بللا ان تزيد من حجم دورها العربي وتؤدي بذلك خدمة كبرى للامة العربية ومعركتها القومية ...

اننا اذ نعبر عن ارتياحنا لمبادرة القيادة الجزائرية ، فانما نبقى بانتظار استكمال هذه الخطوة بما يعزز املنا في ان يتحرر بن بللا من كل قيد وتتاح له فرصة ان يلعب دوره المأمول والمرتجى . فهل سيأتينا النبأ المنتظر ؟

■

لعنة الديمقراطية

ستدهمني في الشارع وحيدا ، وتلفك العزلة من الجهات الاربع لكنك ستندهش لا محالة حين تعلم انك تصير مزمارا يلف المدينة بصوته ساعة تموت وهذا دليل على انك تدع الجريمة ، في زاوية من دماغك المضطرب حال اكتشافك لمرض الحياة الدائم « الديمقراطية » هذا المرض هو جنسيتك، دفاعك الجاد في سبيل ملامسة تساؤلك الداخلي لذات تنتظم في علاقات اجتماعية النظام المريض وخضوعه للطبيب في مستشفى معزول . لكنك تواجه انكار كل صفة انسانية ، وسط صعوبة شفائك العاجل الذي تحلم به . وما عليك الا ان تتخذ قرارا بتجاوز هيجانك وانفعالك الاصلي حتى تتعقلن مع هذه الابادة الجماعية للانسان وسط هذا السائد من المرض العقلي والشذوذ السلوكي . انها الحرب .. حرب الانسان حرب التحرير الوطني .. النضال المسلح ، ضد الاغتيال المباشر للحلم .. حرب الفراغ القائم في مرآة عملك - ولا شك انك تمارس حقك ايضا وتتمرد على سريرك الذي لا يحمل غيرك ذلك لانك ستشعر بان القمع يمارس على اعضائك حين تقف برهة امام ذاكرتك وما ضرك ، كيف تتجلى مواهب السلطات في كل ما تمارسه على هذه الارض سم هذه الحالة كيفما تشاء طالما انك لا زلت تستجيب لهذا النموذج الحياتي فهذا توكيد منك على انك محرج بين ان تظهر قلقك الدائم في الاماكن العامة . وبين ان تنام في مقهى يعج بالبشر المحقونين بالادوية التي تساعد على النظر والتمعن اكثر في المأساة .

اترى معي ان جميع ابناء شعبك يزورون المقبرة وبأن هذه الزيارات اصبحت ظاهرة اجتماعية تحتاج الى دراسة ، اترى ايضا انك قادر على حمل مصباح له الحق في ان يرسل كامل نوره فوق الاضرحة الجديدة .. اترى انك تستطيع ان تتحرك بين القبور اثناء الليل او في النهار دون قناع يغطي وجهك ويخفي ملامحك وتحس حينها بأنك « حر » مما يبعث فيك شعورا بالرضى والاحساس بان للمقابر وديمقراطيتها . لكن حال خروجك من هذا الانسجام مع اصدقائك الموتى ، تخضع تقاسيم وجهك لتلويثات الشارع فورا . فاذا انت وقفت امام هذا الاستهجان الذي يفرزه داخلك كونك لا تستطيع تكييف هذا الداخل مع اساليب القمع الفنية السائدة كيف ستواجه اللاتعبيرية في حركة الواقع كيف تواجه هذه العلاقات الموجودة حين تتعلم ان القمع هو اول واخر ما تجيد ابداعه الانظمة ؟!

ضمن هذا السياق يصعب تقدير اية نتيجة حول ردة الفعل الانسانية وتأثيرها على السلوك في معركة البقاء الخاضعة لصالح اضطهاد المواد بما فيها الموسيقى والرقص والجامعة ، وجميع طقوس الفرح التي يمارسها الانسان خلال معاداته للعنة والاخفاق اللذين يعايشهما في هذه المستعمرة الاجتماعية .

ففي هذه الحالة لا يعود الهدف السامي عند الانسان هو تنظيم العلاقات وبرمجتها . فالذي يحدث هو العكس تماما مما ذكرت ، اذ يستوجب الامر هل وتكسير كل اواصر الرباط ، بحيث تبدل كل اشكال التواصل الاجتماعي عن طريق الوعي الذي انتجته معايشتنا للاضطهاد والمعاناة ، وهذا الوعي يرى الحياة بانها تسير على نحو يغاير مفاهيمنا وارادتنا . فالمسألة الانسانية لم تتجاوز مسألة التحرر الاقتصادي ، بل انها لامست المنهج الوراثي للاخلاق الانسانية التي تحمل بين حناياها سياسة تقليدية غير مقبولة . وان اي بحث حقلي للعلاقات الاجتماعية السائدة حاليا وسط هذا الصراع يكشف لنا وبوضوح مدى تأزم وانعزال الاكثرية من الناس عن احتفالات الصراع الموجود . رغم انهم يعيشون صلب المعركة في غرفة الحياة . وهذا يعود الى ان الانسان العادي فقد حاجيات البقاء الاساسية على صعيد الحرية والديمقراطية ، اذ نستطيع في هذا المجال القول ان النشاط النفسي عند هذا الانسان الذي يعيش مرحلة الصراع ويدفعها الى الامام قد اصيب بفقدان الحس باللذة على صعيد النضال بعد هذه المشاهدات اليومية لاخلاق الانظمة . وهنا تخضع مسألة الاستمرار بالنضال الى الاتزان الداخلي عند الفرد . لكن هذا الاتزان قد اصيب بالشلل نتيجة تأزم العلاقات بين الانسان والسلطة الى جانب ان هذا التأزم مغلف بقناقيع فكرية يراد منها خدمة الانسان نظريا وليس على الصعيد العملي .

وبعبارة موجزة فقد الفرد صورة الحلم وملامحه . وهذا ادى الى رفع غشاوة العلاقات القائمة وادخلنا في صلب الازمة بحيث اصبحت الهموم مجردة وواضحة لدينا .

عن الاستعباد وما يخلقه من يأس . هذه الرؤية هي اساس لولادة الشكوك حول قدرة الفرد على النفاذ من هذه التهديدات المستمرة لكيانه . وهذه التهديدات تتمثل في كونه يعاني ازمة « جماد مستهلك » على الصعيد السياسي والدعائي الذي يمارس عليه عصبا . فحين يصدم هذا الفرد بالانهيار الحاصل مع ما يرافق هذا من حرب مستمرة ودائمة اي حين يصير القتل عاديا مثل دقات القلب داخل الجسم الانساني ، لا بد ان تنبري مفاهيم جديدة لمهنة الحياة تتجلى هذه المفاهيم في ان نشاطنا اليومي خاضع الى عجز دائم وفرح مفتال . مما يدفعه للبحث عن وسيلة للهروب نجد ملامحها في تنازله التام عن كل سعادته التي كافح من اجلها ، والسبب في هذا يعود كما ذكرنا الى قتل الرغبة عن طريق اعدام حرية الحلم . ذلك لان الخطر بات ينبع من النظام الذي نعمل له ونكافح ضده في آن معا . مما احدث انسجاما بين الثورة والسلطة ادى هذا الانسجام الى تنازلنا عن الساحد بطريقة جعلت منا اجسادا درامية لا تؤمن بحركتها .

اذا كيف يمكن الخروج من هذه الدائرة ، لا شك ان اية محاولة لاغتيال هذا الاضطهاد لا يمكن ان تتم الا من خلال الاحساس والعمل الجماعيين في ضرورة الحياة المتبعة بالنضال ضد هذا القهر النفسي اولا ، يمكننا من خلاله ان نحقق نضالا اجتماعيا يحقق الحرية والديمقراطية في هذا الزمن الذي اغتيلت فيه عفوية الحركة . وهار فيه الانسان يجيد دونما جهد اساليب الاغتراب داخل وطنه .

حسين نصر الله